النّص القرآني بين التأويلية والتأويل

ومستقبل العقائد

خولة جهاد دمبري

دكتوراه عقيدة ل م د

شكّل هاجس التّجديد في المسيرة التّحديثيّة للمنظومة الإسلامية علوما ومناهجا، مبادئا وأهدافا؛ في مواجهة التّحديّات ومواكبة المستجدات إلى استحداث أو إدخال مناهج جديدة خارجة طرحت بدخولها إشكالية الاختلاف والمغايرة عن الأرضية الإسلامية والتي قد تتصادم والخصوصية الحضارية والعمران النّفسي الأصيل، والذّي صاحب تشكّل هذه المسيرة؛ "القرآن الكريم" بقدسية ومركزية ومصدرية وقيومية نصّه الوحياني الثّابت المتعالي والمفارق، ولكن التّهافت في طرح نماذج التّجديد أرسى رحاله تحت دثار الحداثة الغربية واقتباس روحها جملة، وإسقاط بعض مناهجها وفلسفاتها على الرؤية الإسلامية بالدّعوة إلى تحديث الجذور والمفاهيم، وقولبة الرؤى بمنطق يتجاوز الغيبيّة ؛ انطلاقا من النّص الدّيني القرآني والتراثي بصفة عامة في دعوة إلى قطيعة معرفية وروحية عنه؛ بأرخنة وأنسنت وعقلنة الدّين، واعتباره نصّا خاضعا لبنية ثقافية محدّدة بواقعيته وإشكالاته اليومية معتمدا على قوانين اللغة العربية النّمطية، وهو "في هذا المنظور لا يعدو أن يكون نتاجا للظروف الاجتماعية والاقتصادية والسياسية التي أسهمت في تشكيله، ممّا يجعله عارضا في تأثيره، محصورا في بيئة نشأته، غير منفكّ عن دواعي تشكلّه"[1]، وتجاهل أنّ "النص الدّيني يكتسب في الإسلام أهمية بالغة، ليس لكونه نصّا مقدسا يمثل ارتباط السّماء بالأرض فحسب، وإنما لما يمثّله من نمط معرفي متميز وفعال في كلّ مساحات المعرفة التي تفرضها الضرورة الزمنية... ومن هذه الزاوية يمثّل النصّ الديني أول تمايز بينه وبين الأشكال المعرفية التي تعارف عليها البشر"[2].

ووفقا لهذا التمايز اتجه العقل الإنساني إلى نقد موروثه الثّقافي في تيار النّقد العام الذي شمل فصولا معرفية تراكمت عبر التاريخ صعودا إلى تفتيت وتفكيك المقدّس في محاولة لبعث حركته من جديد بما توافر عليه الراهن من فلسفات ومناهج، فـ"شكّل تفاعل المتلقّي مع النّص المقروء في الموروث الفكري العربي،

1_ قطب الريسوني، النص القرآني من تهافت القراءة إلى افق التدبّر: مدخل إلى نقد القراءات وتأصيل علم التدبّر القرآني، ط1، منشورات وزارة الاوقاف، والشؤون الاسلامية، المغرب، 1431_2010م، ص 209_210.

2_ معتصم السيد احمد، الهرمنيوطيقا في الواقع الاسلامي بين حقائق النص ونسبية المعرفة، ط1، دار الهادي، بيروت، لبنان، 1430هـ_2009م، ص 7

رصيدا تراكميا لعملية القراءة وهو الرّصد الذي يستمد أصوله الفكرية والإجرائية من المرجعية الفلسفية والدّينية التي تؤطر فكر المتلقي للخطاب المنجز في الثقافة العربية عبر مراحل تطوّرها" وكانت البداية بالهجمات الاستشراقية في القرنين الأخيرين والّتي صدّعت جدار علوم الوحي بنطحات الحداثة، ما تسببت في إحداث شقوق تسرب منها نوع من الوعي الذاتي بوجوب شحذ الهمّة في استنباط المناهج والأدّلة الجديدة للدّفاع عن الموروث الحضاري عقيدة وشريعة لأمة الإسلام والردّ على هجمات الطعن في صدق وحجيّة نبوّة النبي ــصلى الله عليه وسلمــ وصحة رسالته من خلال إجراء قراءات جديدة تنسف السنة الصحيحة بغية الوصول إلى القول بشرية القرآن وتاريخانيته، وقد كانت الهجمات جريئة واضحة قوية تستند لأدلة تتهافت قوة وضعفا، لا زال يتخبط العالم الإسلامي بسببها، لكنّها من جهة أخرى جعلته يستفيق من غيبوبته في مواكبة الجديد وإثبات مغالطاتها.

وبما أن القران الكريم محور العلوم ومعطياتها والمرجعية الأولى في نشأتها وإسقاطاتها المعرفية السياسية والاجتماعية وغايتها؛ فقد كان القضاء على هذا التكتل بالضرب في القرآن يقتضي إزاحتها عبر طرق معاصرة حيث تختلط فيها المناهج والفلسفات الجديدة المقتبسة من أرضية غربية المشرب، فراحت تطبق المناهج كالانتثروبولوجيا، الظاهراتية، التفكيكية، السيميائيات وعلم الدلالة في النصوص الحديثية وإسقاطها في بحث جديد لعلل السند والمتن معا من اجل تقليص الحجم الهائل للمرويات، ونسف ثاني مصدر من مصادر الإسلام، ممّا أفقدها فاعليتها عند شباب اليوم وتمكنهم من زحزح الثقة في مصدرهم الثاني، والعبث بالسنة وحجيتها قد سفه حضورها طيلة قرون وانتقل بالتجرؤ على رسول الله بصفته قائلها والتشكيك في أنّه ينطق عن هوى، ثمّ المضيّ إلى القرآن تدريجيا في دعوى تجديد العقل والخطاب الدّيني والانفتاح على قراءة جديدة له بمنحيين: يقصي الأول قداسته وغيبيته وبالتالي حضوره الخالد زمكانيا وحشره في ركن التاريخ والماضي، أو استحضاره بعيدا عن كلّ ملابساته وبتره عن علومه وقراءته من الدّاخل فقط بالاعتماد على بنيته الذاتية.

ورفع راية هذه الرؤية من المفكرين؛ حداثيون ممّن أطلق عليهم عبد المجيد النّجار "الباطنيون الجدد" في كتابه "القراءة الجديدة للنّص الديني"؛ تبنوا جذور الحضارة الغربية جملة، كما عمدوا اللجوء إلى استحضارها وإلباسها قصرا على المنظومة الإسلامية برؤيتها الخاصة ومرجعيتها المقدسة والدخول بمناهج وآليات، ومن هذه المناهج **التأويلية الحديثة** أو المحدثة أو ما يدعى ب**الهرمنيوطيقا**[1] في قراءة النّص القرآني، وما يميز هذه

[1]_ هو اتجاه فلسفي وجودي تحليلي نشأ في أحضان اللاهوت المسيحي، لتفسير النص الديني المسيحي، خصوصا بعد أن طرحت مجموعة من القضايا المشكلة المتعلق بالإنجيل، على المتعاطي للتفسير المسيحي من غير الكنسيين أو الإكليروس، هذه المشكلات

المدرسة _التي يعرض لها النّجار_ خطابها الفج وجرأتها على الدّين الإسلامي بشكل غير مسبوق، وتبنيها منهجية وأدوات التحليل الاستشراقي الغربي في تفسير النصوص الدينية بالقراءة التفكيكية من زاوية العلوم الأدبية والإنسانية للطعن في قدسية النص الديني مثل :التاريخية، والهرمنيوطيقا، والنسبية، والرمزية، وإدخال بعض المعادلات والقوانين الرياضية، حتى يغدو النّص الدّيني بهذا التفسير مجموعة من النّصوص الوضعية تمكن من قراءته وبناءه من جديد من خلال جملة من المقاصد والمعاني ذاتية القراءة1.

واليوم تشكّل هذه القراءة دون وضع الضوابط تأثيرا سلبيا على نتاج العلوم الإسلامية بنحو عام، وعلى علم الكلام المعاصر بنحو خاص، والّذي شمله المشروع التجديدي التّحديثي في محاولة لتطويره فيما يدعى بالكلام الجديد، من خلال إعادة بناء هندسته المعرفية، في ضلعها المنهجي بالتّدقيق، وفق مناهج إنسانية واجتماعية وتجريبية تتحد مع المنهج القرآني في إثبات العقائد.

ويجب أن نتفق _في البداية_ على أمرين:

1_ يتحتّم على المتعامل مع النّص القرآني أن يضع المعنى العقدي والدّيني في الاعتبار، وعدم الاقتصار على ما هو لغوي في النّص القرآني2، لأنّ النّص القرآني "ليس مجرد ألفاظ لغوية، وإنّما هو دلالات ومفاهيم تمثل إرادة المشرع في كل نص ومقصده من التشريع"3، كما أنّه ليس كل نص يحتاج إلى تفسير واستنطاق بالقوة دونما سبب يستدعيه، فما التأويل[4] إلّا وسيلة للفهم فيما لم يتضح بيانه الذّاتي من النصّ أو الكاتب نفسه وليس غاية يخضع لها النّص الواضح والمبيّن قطعيا ودلاليا.

تلخص في: تثبيت الإنجيل المنقول شفويا عن طريق الكتابة، وتعريف العلاقة بين العهد القديم والعهد الجديد، للتباعد اللغوي بين العهد القديم والعهد الجديد، وللتباعد اللغوي بين الكلمة في أصل وضعها والاستعمال الجديد، كذا الاعتقاد بوجود معنى خفي وراء المعنى السطحي، ولانعدام الثقة في القراءة الوحيدة للإنجيل، وأول كتاب ألف في هذا المجال اسمه (الهرمنيوطيقا) ومؤلفه (دان هاور) طبع عام 1654م، ذكر فيه مناهج وقواعد لتفسير الكتاب المقدس، عبد الرحيم بودلال، مقال بعنوان: الاتجاه الهيرمنيوطيقي واثره على الدراسات القرآنية، http://ebn-khaldoun.com/article_details.php?article=576

1_ محمد العواودة، عرض كتاب: القراءة الجديدة للنص الديني، الباطنيون الجدد والقراءة المتهافتة للنص الديني الدكتور عبد المجيد النجار، صدار مركز الراية للتنمية الفكرية، 2006.
http://alrased.net/main/articles.aspx?selected_article_no=4848

1_ سورة يونس، 15_17.

2- دراسة الطبري للمعنى، 39.

3- المناهج الأصولية لفتحي الدريني،22.

4_ التأويل (anagogique): مشتق من الأول وهو في اللّغة: الترجيح، تقول أوله اليه رجعه، أمّا عند علماء اللاهوت: فهو تفسير الكتب المقدّسة، تفسيرا رمزيا أو مجازيا، يكشف عن معانيها الخفيّة، جميل صليبا، مرجع سابق، ص 234.

2_ أن التأويل عمل ضروري في توضيح الغامض، على عكس التفسير الذي يزيد الآية وضوحا وبيانية وليس البحث في ما وراءها فيما قد يحتمله النص من أوجه بعد أن ضبطت قواعد لتفسير القرآن، بسبب العجمة التي لحقت باللسان العربي بعد الفتوحات الإسلامية، باعتماد أوّل لتفسير القرآن بالقرآن ثمّ المأثور والرأي، وقد يتداخل هذين الأخيرين، فيستعمل أصحاب الرأي الآليات التأويلية للاتجاه الثّاني والعكس صحيح، فهما ينطلقان من أسباب النّزول ودلالة الآيات والمناسبات وغيرها من المنطلقات، وكذا الحقائق التاريخية والمعطيات اللغوية، لكن قد تنقل _في اتجاه الرأي والتأويل_ اللّغة من الدّلالة المرجعية إلى الرّمزية، يخضع فيها النّص القديم لشروط إنتاجه الجديدة[1] بعيدا عن محتملاتها الأكثر وضوحا.

ويصرّ مفكرو الحداثة اليوم في تدعيم توجّههم على الاستتار وراء النّصوص المنتقاة من التّراث الإسلامي، وفي تمجيد العقلانية والإعلاء من مقام العقل ومنهجه، واستثمار كلّ ما يبرز وجهة نظرهم كاتخاذهم تأويليّة الغزالي وابن رشد... الصّوت الّذي ينادى به لتفعيل الممارسات العقليّة المتحررة في تجديد الدّين وتحريره من ربقة التّقليد القديم الأصولي وإضفاء قراءة تأويلية جديدة للنصّ الدّيني والتّراثي وإخراجه في حلّة جديدة مبتورة عن تراكمات السّابقين وإشاعة روح جديدة تماشيا مع الانفتاح العلمي المادي والمناهج الفلسفية المعاصرة الغربية التي نشأت في حجر الفلسفات العقلية والتنويرية والإنسانية.

وقد أجمعت معظم المذاهب الإسلامية على القول بالتّأويل تصريحا أو تعريضا، وفي عدد من النّصوص والمشكلات، وعلى تفاوت بينهم في الاقتصاد والتّوسّط والتّوغّل، ومع اتفاق الفرق على الدّرجات الخمس في التّأويل: الوجود الذّاتي، والوجود الحسّي، والوجود الخيالي، والوجود العقلي، والوجود الشّبهي، واتفاقهم أيضا على جواز ذلك التّأويل موقوف على قيام البرهان على استحالة الظّاهر[2]، والتأويل عند ابن رشد هو: "إخراج دلالة اللّفظ من الدّلالة الحقيقية إلى الدّلالة المجازية، من

وهو مشتق من آل يؤول إذا رجع تقول آل الأمر إلى كذا أي رجع إليه وما آل الأمر مرجعه، ويعتبر من المصطلحات المختلف عليها في علوم الدين والقرآن عند المسلمين فمنهم من قال: يطلق في القرآن والسنة ويراد به التفسير، كما يراد به الحقيقة التي يؤول إليها الأمر أو الخبر .تأويل الكلام هو الرجوع به إلى مراد المتكلم، وهو على قسمين: الأول: بيان مراد المتكلم، وهذا هو التفسير. الثاني: الموجود الذي يؤول إليه الكلام، أي ظهور المتكلم به إلى الواقع المحسوس .وهناك من قال بأن التفسير غير التأويل مثل قول (الثعلبي):التفسير بيان وضع اللفظ إما حقيقة أو مجازاً، والتأويل تفسير باطن اللفظ
http://ar.wikipedia.org/wiki/%D8%AA%D8%A3%D9%88%D9%8A%D9%84.

[1]_ رابح طبجون ، مرجع سابق، ص356_367.

[2]_ محمد عمارة، ابن رشد بين الغرب والإسلام (سلسلة التنوير الإسلامي 5)، د.ط، نهضة مصر، مصر، 2006م، ص 36.

غير أن يخلّ ذلك بعادة لسان العرب في التّجوّز، من تسمية الشّيء بشبيهه أو سببه أو لاحقه أو مقارنه، أو غير ذلك من الأشياء الّتي عددت في تعريف أصناف الكلام المجازي"[1]، مع الإجماع على وجوب إخراج بعض الألفاظ عن ظاهرها بالتّأويل، كما نبّه على أنّ ما ثبت فيه الإجماع بطريق يقيني لم يصحّ فيه التّأويل.

فالمقصد من التّأويل القائم على قانون "التّأويل العربي" ــإن صحّ التعبيرــ هو الجمع بين المعقول والمنقول، وليس إحلال المعقول محلّ المنقول، وتخصيصه بعقول الرّاسخين في العلم، لقوله تعالى: "هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ رَبِّنَا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ"[2] أمّا في عالم الغيب فيجب أخذ النّصوص على ظواهرها، مع التّأكيد على الاقتصاد في التّأويل[3] درءً للتّجاوز، ...وغيرها من القضايا الّتي فصّل فيها ابن رشد في كتابه: "فصل المقال فيما بين الحكمة والشّريعة من اتّصال"، إذ "أتاح الخطاب القرآني للعقل أن يتأول في ما عرض من الآيات التي تساوت فيها خصائص لفظية انعكست على الدّلالة، كإيهام وجود تناقض، أو قراءة تصحيفية للفظ، أو اشتقاق معكوس للكلمة، وما إلى ذلك مما عرف في حقل أصول الفقه بالمتشابه مقابل المحكم"[4].

وقد تراوح واقع التّأويل بين الإفراط بالوقوف على الظّاهر عند النّصوصيين، والتّفريط في تحرّر التّأويل العبثي لكلّ تنزيل من طرف الباطنيّة وشطحاتها من جهة أو إلغاء الدّين وتطبيق نظريّة موت المؤلّف بالتّأويلية الماديّة الغربية التّي تخضع لسلطة القارئ فقط من جهة اخرى، وكلاهما لا تعرف ضوابط وحدود كما تحكمها الذّاتية، فالثّانية ادّعت تبنّي التّأويل الرّشدي الّذي كان شعلة التّنوير في أوروبا بمعناه الهيرمينوطيقي "علم التّأويل والتّنوير"، "لإحلال الدّين الطّبيعي الوضعي بدل الدّين الإلهي لتوظيف النّموذج الغربي في التّقدّم والنّهوض، بدل النّموذج الإسلامي في النّهضة

---

[1]_ ابن رشد، مرجع سابق، ص 32، انظر: فصل المقال، مرجع سابق، ص 32_33.

[2]_ آل عمران، 3.

[3]_ محمد عمارة، ابن رشد بين الغرب والإسلام، مصدر سابق، ص 37_40.

[4]_ منقور عبد الجليل، الدلالة بين المقصدية والتأويل قراءة في تأويل النص الديني، الجزائر، http://www.startimes.com/?t=29303312

والإصلاح"[1]، فالمنهج الإسلامي يجعل من التّأويل سبيل من سبل وعي الإنسان المسلم[2] في توثيق معاقده الإيمانية وإدراكه للغيبيّات الّتي تقصر اللّغة الدّنيوية المحدودة عن وصفها، ومنهج يقف على الوسطيّة المتميّزة بين النّصّ الدّيني والاجتهاد البشري دون إهدار حقّ كلّ منهما في ثنئيّة الثابت والمتغيّر.

و"يقف أمبرتو إيكو (عالم السيميائيات الايطالي) عند حالتين يرى أنها أرقى شكلين عرفهما التأويل وهما:

1_ حالة يكون فيها التأويل محكوما بمرجعياته وحدوده في الزّمان والمكان وبضوابطه الذاتية، أو بأصول حضارية تمتزج داخلها السياسة بالمنطق والتاريخ، وفي هذه الحالة يظهر التأويل مشكلا من سلسلة من الإحالات قد تبدو لا متناهية، بحيث تحيل كلّ علامة على علامات أخرى، ولكن هذه الإحالات غير مطبقة في النهاية، بل تخضع لاعتبارات الكون الإنساني المتصل بغايات معينة، إنّها باختصار حالة من التأويل نسبية، فالإحالات فيها غير محكومة بنقطة بداية ومتجهة نحو نهاية بعينها.

2_ حالة ثانية يدخل فيها التأويل متاهات لا تحكمها غاية أو هدف بحيث تبدو الإحالات مطلقة لا ضابط لها، ولا حد لأبعادها بحيث تصبح غاية التأويل هي الإحالات بحد ذاتها"[3].

ويبرز موضوع الهرمنيوطيقا بوصفه علما ومنهجا معرفيّا يبحث في مسائل النّصّ من حيث طبيعته وتكوينه والصّلة الرّابطة بينه وبين مبدعه وعلاقته بالتّقاليد والبنى المجتمعية والنفسية، وأهمّ نقطة مثيرة للجدل هي "النسبيّة المعرفية" الّتي تؤّكد عليها الهرمنيوطيقا ضمن الدّعوة للقراءة المفتوحة والمتجدّدة للنّصّ، بحيث يحقّ لكلّ قارئ حينها الفهم من غير أن يكون لأحد حقّ احتكار الحقيقة، ودون الوقوف على حدّ نهائي ومطلق؛ وهذا ما يعاب عليها خصوصا وأنّها دخيلة على المنهجية الإسلامية، فقد طبقت بداية على التّوراة والإنجيل وجرّدتهما من القداسة والمطلقية والغيبيّة وأدخلت

---

[1]_ المصدر نفسه، ص 43.

[2]_ محمد عمارة، النص الاسلامي، مصدر سابق، ص 12_14.

[3]_ رابح طبجون، تفكيك النص الديني وآليات التاويل من منظور ألسني، مجلة الدراسات العقدية ومقارنة الاديان، تصدر عن مخبر البحث في الدراسات العقدية ومقارنة الاديان، جامعة الامير عبد القادر للعلوم الاسلامية، قسنطينة، ع 5، 2009م، ص 354_355.

نصوصهما في جدليّة مع الواقع، وحكمت عليهما بالتّاريخانية والنسبيّة وتقرير هذه الأخيرة حقيقة وحيدة، "فالهرمنيوطيقا لا تعترف بالحقائق الثّابتة وتستسلم لمقتضى الظّرف البشري في المعرفة، ممّا يجعل النّصّ الإلهي محكوما ضمن تصوّر زماني ومكاني يخلقه المفسّر، وبالتّالي تلغي أيّ محاولة لإسناد أيّ فكرة إلى الدّين، بل لا يمكن خلق تصوّر معرفي يمكن وصفه بأنّه فكر دينيّ"[1]، وقد وجد هذا المنهج _الدّاعي لنسبية معرفيّة_ أنصارا في الوسط الإسلامي استندوا عليه في فهم جديد للنّص الدّيني وفقا لأفق المرحلة ومقتضيات العصر[2]، من أمثال حسن حنفي[3] ونصر حامد أبو زيد[4] ومحمد أركون وغيرهم من القائلين بالظّاهريّات التّفسيرية والإسلاميات التطبيقية للقرآن الكريم، وسعيهم نحو تأسيس مشروع "تأويل معاصر" وطرح إشكالية القراءة وطرائقها، وقد تكون التّداخلات غير المضبوطة بين مصطلحات التّفسير والتّأويل وتباينات المفاهيم وتطوّراتها ما بين التّرادف، العموم والخصوص، والاحتواء والتّكامل وغير ذلك؛ وما جرّته من مشكلات في منطلقات المعرفة الإسلامية.

وإن كان "الواقع الهرمنيوطيقي في الواقع الإسلامي لا يتحرّك بصورة منفصلة عن المشروع العام الّذي يسعى لتجديد الخطاب الدّيني (...) ولا ينفصل عن المساعي الّتي تعمل على تشكيل وعي جديد يتجاوز الصّورة التّقليدية الموروثة، وذلك بغية إيجاد واقع معرفي يكون الإسلام فيه حاضرا ومعاصرا" إلّا أنّ الإيديولوجية لم تسلم منه ولن تنتج إلّا وعيا مؤدلجا يُخضع النّصّ له ما يغيّب الحقائق المطلقة في النّص الإلهي ويحلّ محلّها النّصّ البشري وما سيجرّه من تطرّف وتجاوز للاعتقاد غيبا وشهادة، وكذا وضعية القيم قي مقابل معيارتها ممّا يعني أنسنت الدّين... وغيرها من القضايا، وقد اعتمدت مدخل القول أن القرآن كان خاضعا للرؤية الجزئية والضيقة في تفسير آياته وتأويلها، غير في المفسّرين والمتكلمين قد استخرجوا _مثلا في مجال العقيدة _كل الآيات الدالة على وجود الله وصفاته وأوصاف النبوة ومقتضياتها وآيات المعاد والبعث واليوم الآخر بأحداثه وتأويل صفاته أو تفويضها كما هو معلوم، في وحدة موضوعية لبيان وجود الله وصفاته وأفعاله ومتعلقات الإيمان به وارتباطه بالأركان الإيمانية

---

[1]_ معتصم السيد احمد، الهرمنيوطيقا في الواقع الاسلامي مرجع سابق، ص 10_11.

[2]_ المرجع السابق، ص 11.

[3]_ انظر: حواره مفصلا بعنوان "الاتجاهات الجديدة في علم الكلام" مع عبد الجبار الرفاعي، الاجتهاد الكلامي، مرجع سابق، ص_ص 309_358.

[4]_ انظر: نصر حامد ابو زيد، اشكاليات القراءة وآليات التاويل، ط7، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، المغرب، 2005م.

التابعة له في وحدة تجمع بين الإيمان وآثاره النفسية والسلوكية والاجتماعية وتخرج برؤية متكاملة للعقيدة الإسلامية من خلال استقراء مجمل آياتها مسطورة ومنظورة تصريحا وتأويلا.

وقد اتفق المجددون في الإسلام على تشجيع كلّ عمل عقليّ ووزنه بميزان التّوازن والوسطيّة والاعتدال حتّى لا يشذّ إلى الانغلاق أو التفلّت كرؤية ثابتة، مع فتح الأبواب أمام مدارك العقل بالدّعوة للعقلانيّة المؤمنة، وإعادة ضبط قضيّة تعارض العقل والنّقل وقضية التّأويل وكذا الاجتهاد مع النّصّ؛ في محاولة للعودة بالعصر الذّهبي وهو زمن عمر بن الخطاب، الذّي لم يحجر فيه على العقل، عصر العلم والحريّة والحضارة.

ولقيت مشاريع القراءات الحداثية للنص القرآني مقاومة عنيفة من لدن علماء الإسلام الذين عملوا على الكشف عن سقطات هذه المناهج في التطبيق ومزالقها في التنظير واستنتاج واستكشاف دلالة النصوص1، وهم مصيبون في تخوّفهم وتريّثهم في قبول المناهج الغربية المنشأ كما سبق في الهرمينوطيقا ونفس الأمر مع السّيميائيّات واللّسانيات الجديدة والّتي توافقت وواقعها وظروفها وإدراك مضامينها ونتائجها الّتي لا تدخل في المشترك الإنساني العامّ، وتتوقّف عند الخصوصيّة الحضاريّة للإسلام والمسلمين، فالقرآن عندنا مقدّس متعال من ربّ منزّه عن كلّ صفات النّقص، لا يعلم تأويله إلّا الرّاسخون في العلم ممّن ارتضاهم الله لتلك المهمّة، ولا يحتاج تطبيقات النّقد السّافر كما الّتي مورست على الكتب المقدّسة والّتي أفقدتها القداسة وبالتّالي مهمّتها الأساسية، و "لا شك في أن تفسير القرآن الكريم وقراءة النص السماوي يقوم على أساس الفرضيات والأسس المعرفية ومعرفة الوجود والوحي والنبوة ... إذ يعد التأمل النظري والفلسفي في هذه الفرضيات من حيث تأثيرها في رقعة فهم وتفسير النص، من جملة ما يشغل التفكير الفلسفي الهرمنيوطيقي، وقد عمد بعض المستنيرين الدينيين المعاصرين بتأثير من حساسيات الهرمنيوطيقا الفلسفي إلى جعل مقولة فهم وتفسير النص السماوي موضعا لتأملهم وتفكيرهم"[2] من أمثال: محمد مجتهد شبستري، عبد الكريم سروش، ونصر حامد أبو زيد وغيرهم.

1- من هذه الدراسات دراسة الدكتور محمد عمارة الصادرة عن دار الفكر 1998، وهي بعنوان "النص الإسلامي بين الاجتهاد والجمود والتاريخية .. .وتحتوي هذه الدراسة على عدة انتقادات وردود للمنهج التاريخي...
وكتاب: روح الحداثة المدخل إلى تأسيس الحداثة الإسلامية للدكتور طه عبد الرحمان المركز الثقافي العربي،2006. ودراسة الدكتور نعناعة رمزي، بدع التفاسير بين الماضي والحاضر، دار الأنوار، الرياض، 1991.

2_ أحمد الواعظي، الهرمنيوطيقا المعاصرة والنصوص الدينية/ رؤية نقدية لمفهوم محمد مجتهد شيستري في "القراءة النبوية للعالم"، الهيرمينيوطيقا والمناهج الحديثة في نفسير النّصوص الدينية (1)، (سلسلة قضايا اسلامية معاصرة)، ط1، مركز دراسات فلسفة الدين، بغداد، ، س17، ع 53_54، 1434_2013، ص 357_ 358.

وعلى مستوى آخر تعتبر مناهج القراءات التأويلية؛ إشكاليّة مؤثرة بتشكّل المسيرة الكلامية المعاصرة كمنهج متّبع في الدّراسات الجديدة لعلم الكلام، كما يقف علم الكلام موقف المدافع النّاقد من هذه القضية لما توجّهه من طعن بمصدرية كل العلوم الإسلامية والإنسانية حين صارت تمثّل قضيّة معاصرة من أهمّ قضاياه وما ينجر عنها من طعن بالنبوّة والعصمة والرسالة والسنة وهو الركن الرّكين في عقيدة التّوحيد، التي قال عنها أركون: "...أنا لا أقول بالتّراجع عن هذا التّصوُّر معاذَ الله؛ ففي التّوحيد المنزَّه المطلَق تتجلّى عبقريَّةُ الإسلام؛ وإنَّما أقول بإعادة تأويله؛ أي تأويله بشكل مخالف لما ساد في العصور الوسطى... وهنا يكمن الرِّهانُ الأكبرُ لمراجعة التُّراث الإسلاميّ كلِّه، ولتأسيس لاهوت جديد في الإسلام"[1]، وبناء على أنّ النتائج المستقاة خاضعة للمناهج المطبقة سلبا وإيجابا، يظلّ "المشكل المنهجي الكبير الذي تطرحه مقاربة صنف "المتكلمين الجدد" هو افتراض القطيعة بين النص موضوع الدرس (النص الديني) ومناهج التأويل المطبقة عليه (العلوم الإنسانية النابذة للمسلمات الغيبية والسرديات الخارقة) فهذا الحكم لا يستقيم لسببين رئيسيين، يتعلق أولهما بالتداخل النظري والقيمي بين النص الديني والعدة التأويلية التي تتناوله، ويتعلق ثانيهما بطبيعة المناهج التأويلية ذاتها التي يحملها "أركون" مضامين تعبوية بحيث تكون بديلا عن النص الديني نفسه"[2].

أمّا في مجال علم الكلام فيعتبر التأويل مرحلة في بناء الدّليل الكلامي بمعنى أن المتكلم قد يستعين بالتأويل أحيانا في بناء دليله وهو في ذلك لا يخرج عن النصّ إذ يبقى عنده متعاليا بينما في التأويلية الأمر مختلف تماما فلا معنى فيها للتعالي أو المفارقة الخاصة بالنّص القرآني، فالنّص منتج خاضع لجملة من الظروف والملابسات وهو محكوم بها، وترى الهيرمينيوطيقا أنّ هذا النصّ بعد أن صار خطابا مكتوبا لا وصاية لأحد عليه حتّى صاحب النص نفسه؛ لم يعد من حقّه أن يقول: أنني قصدت كذا وكذا بل كل يقرأ ويفهم منه ما يشاء حسب ذهنيّته.

فالتأويل الكلامي له قواعده المعروفة والغرض منها الوصول إلى درجة من الموضوعية بحيث تثمر الفصل بين ذات المتكلم والنص، بينما في التأويلية يكون التأكيد على الذّاتية هو سيد الموقف، وهنا بالذّات يبرز خطر العبث بالاستدلالات النقلية في تبيان أركان الإيمان الستة في آية البقرة: 285، وتأويلها إلى أركان اجتماعية أخرى كما أورد حسن حنفي في كتابه من العقيدة إلى الثورة، كما العبث بآيات وجود الله

---

[1]_ محمد أركون، قضايا في نقد العقل الديني كيف نفهم الإسلام اليوم؟، تر: هاشم صالح، دار الطليعة، بيرت، لبنان، ص 281.

[2]_ تجديد علم الكلام من منظور فلسفات التأويل والعلوم الإنسانية المعاصرة، د. السيد ولد باه، أكاديمي وكاتب موريتاني
http://www.alihyaa.ma/Article.aspx?C=5601

وصفاته في توصيف إله جديد خاضع لرؤية اتحادية أو حلولية وتطبيق النظريات العلمية على آيات الخلق والكون، وكذا تغيير جذري لمعاني الجنّة والنار والتساهل بقضيّة البعث والحساب، ولكنّ الأمر الايجابي أن الله عز وجل جعل لتثبيت العقيدة وترسيخها طرقا أخرى غير النقل، إذ يعرف الله بالفطرة ويعرف البعث بالحس والتجربة، وعن طريق الكون وكماله وانتظامه، أما النص القرآني فهو يحمل في باطن آياته وواضحها نفس المعاني ويقود إلى نفس الطريق التي يقود إليها العقل السليم والتجربة الذاتية والفطرة البريئة في البحث عن المعبود، يقول عز وجل: " سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ"، والتدخّل الإنساني شوّه صفاء ونقاء العقيدة وفطرتها، بفصلها عن الأحكام، إذ رفع الأمر بإتيان الطاعات والاقتصار على المحبة والرجاء والترفّع عن الممارسات السلوكية والتعبدية، لهو هدم للدّين جملة، فالإسلام عقيدة وشريعة ومقاصد.

ويطرح الحديث اليوم عن "هرمنيوطيقا عربية"[1] تستقي منهجها من النصوص التراثية للعلوم الإسلامية وتسعين بعلوم الآلة كأصول الفقه، بالإضافة أمهات علوم الوحي كعلوم التفسير والحديث، وهي علوم نشأت خدمة للنص القرآني تدور في محوره تحديدا وضبطا في كيفية التعامل معه واستنباط الأحكام والمقاصد الشرعية والعقدية منه بعيدا عن التفلت العقلي والتجاوز للمقدس والمفارق بغيبيته، ردا على المستند الذي "استند إليه أصحاب هذه القراءات الحداثية أن في مجال نقد النص تستوي النصوص وتتماثل بصرف النظر عن جنسها أو نوعها أو مصدرها، فالنصوص التي تستمد مرجعيتها من الوحي تتماثل مع النصوص التي ينتجها البشر، لأن كل النصوص تستمد مرجعيتها من الثقافة التي تنتمي إليها" وهذا ما يلغي الافتراق والاختلاف ويحقق التماثل والتجانس بين جميع النصوص من حيث المقاربة المنهجية. "فالنصوص دينية كانت أم بشرية محكومة بقوانين ثابتة والمصدر الإلهي لا يخرج عن هذه القوانين لأنها تآنست منذ تجسدت في التاريخ واللغة فالنصوص ثابتة في المنطوق متحركة ومتغيرة في المفهوم،...2 .3

ولقد وصف الدّكتور البوطي على هذا التوجه في عبثية هذه القراءات في قراءة النصوص الدينية فقال: " إنّا لنشهد هجمة شرسة على القرآن تحت ما يسمى بالقراءة المعاصرة للنص نزل وحيا من الله قبل خمسة عشر قرنا بمقتضى أصول التخاطب المعهودة بين العرب آنذاك، فكيف يستوعب المنطق وقانون فقه اللغة هذا الكلام، لو جاز إخضاع النّصوص التاريخية لما يسمى بالقراءة المعاصرة لاختفى التاريخ واندثر

---

[1]_ فرحات عبد الوهاب، مقال: حركة التأويل للقرآن والدين.

2_ نقد الخطاب الديني لنصر حامد أبو زيد 118

3_ محمد بنعمر، الإشكال المنهجي في مشاريع القراءات الحداثية للنص القرآني، باحث من المغرب.

ولانقطعت صلة الحاضر بالماضي، والحمد لله فإن أحدا من الباحثين لم يقدم بعد على هذه التجربة، ولكن ظاهرة هذا الجنون تظهر فقط في إخضاع القرآن دون غيره لهذه القراءات العصرية التي تفصله عن تاريخه وتقطع الصلة بينه وما يعنيه به صاحبه المتكلم به...1، كما أكد ذلك الشيخ القرضاوي في قوله: "إنّهم يريدوا أن يعيدوا تفسير وقراءة القرآن، إنهم يفسرون القرآن ويقرؤونه بقراءة يسمونها معاصرة، إنها قراءة لا تبالي بما صدر عن الرسول عليه السلام من أحاديث، ولا بما جاء عن الصحابة من تفاسير ولا بما جاء عن التابعين ولا بما جاء عن التابعين ولا عن مفسري الأمة طوال العصور، يريدون أن يكونوا لهم فهما جديدا إلى دين جديد"2.

وبشأن هذا في وجهة نظر خارق النّسق الإسلامي، في مداخلة لأحد المفكرين الفرنسيين على محاضرة ألقاها محمد أركون في فرنسا، يقول هذا المفكر وهو "أرنالديز": "أعتقد أن الفكرة المحورية لمحمد أركون، والتي طالما تناقشنا حولها في الماضي هي التَّالية: لقد وجدت في تاريخ الإسلام تركيبات تيولوجية وقانونية وتشريعية جمّدت، وربَّما بدّلت وشوّهت التعاليم القرآنية التي كانت منفتحة وغنية متعددة الاحتمالات، والتي يمكن للبشرية أن تتأمل بها وتفكر فيها حتى يوم الدين...وأعتقد أنه إذ يقول ذلك يقول أشياء صحيحة، ولكنَّني سأدافع ولو للحظة عن كل أولئك الفقهاء والعلماء والمفسرين الذين طالما درستهم، وعاشرت نصوصهم، سوف أذكّر محمد أركون بأنَّ هؤلاء الفقهاء كانوا نشيطين جدًا، وأنهم حركوا النصوص القرآنية وأنعشوها بتفاسيرهم؛ إلى درجة أنَّه يصعب علينا اليومَ حتى باسم العلوم الإنسانية أن نجد فيها شيئًا آخر جديدًا غير الذي وجدوه ..." ثم يقول: "المفسرون في العصر الكلاسيكي للإسلام كانوا قادرين على أن يستخرجوا من الآيات القرآنية كل ما هو مقال، أو متضمن فيها تقريبًا، ولهذا السبب أقول: إن المسلمين المحدثين الذين يستعيرون المناهج الغربية، كان أحرى بهم أن يكتفوا بمناهج أسلافهم من القدماء، فهي توصلهم بالدّقة نفسها لأنهم استخلصوا من الآيات القرآنية ما توصلهم إليه هذه المناهج التابعة للعلوم الإنسانية والتي يتغنى بها محمد أركون"3.

---

1 _ سعيد رمضان البوطي، جنون القراءة المعاصرة من أين؟ وإلى أين؟، بحث مقدم في ندوة المركز الثقافي والإجتماعي، باريس، 19 أيار عام 2001، http://www.dahsha.com/old/viewarticle.php?id=33345 ، يراجع كذلك: الحداثيون العرب والقرآن الكريم دراسة نقدية للجيلالي مفتاح، دار النهضة ، سوريا، 2006.

– إدريس الطعام، العلمانيون والقرآن الكريم: تاريخية النص، دار ابن حزم، الرياض 2008.

2– نقلا عن مقال محمد بنعمر: القراءات الجديدة للقرآن الكريم برنامج فقه الحياة، أوت 2009.

3_ أنظر: محمد أركون، الفكر الإسلامي نقد واجتهاد، ترجمة هاشم صالح، ص 326_327.

والتأويلية بما ذكرناه من مفاهيم _عامة_ تؤثر على النّص القرآني وهو المرجعية الأولى للاستدلال النقلي والعقلي لقضايا العقيدة، وكذا الخطاب الكلامي المؤسس على رؤى الأولين والمتأخرين في الصياغة اللغوية والمفهومية في الدّفاع والتبيين لأصول العقائد، كما أنّها هذا تستعين في تطبيقاتها بالمنهج الانثروبولوجي (Anthropology ويعرف بشكل عام على أنه علم الإنسان وهو العلم الذي يسعى لدراسة مجرى التطور الإنساني من الناحيتين البيولوجية والثقافية والقوانين والمبادئ التي تحكم هذا التطور والارتباطات التي بين الجوانب الطبيعية المختلفة للإنسان وبين عادات الشعوب في الماضي والحاضر والأنماط التي تميز مجتمعات معينة دون غيرها)، كما يطرحه نصر حامد أبو زيد ومحمد أركون في استنطاق البنية البيولوجية والاجتماعية والنفسية للإنسان العربي وتأثيرها في العقيدة الثيولوجية، كما أن عرض هذا المنهج في الدّراسات الكلامية سيجيب عن فرضيات في ملابسات تشكل العقائد عند الإنسان منذ نزول الإسلام، ويلقي الضوء على تكوين المتكلّم أولا والمخاطب بنتائج علم الكلام ثانيا، حيث أن علم الكلام المعاصر قد ارتبط بفلسفة الدين والالهيات المسيحية الحديثة واختلط دخول المناهج إليه من الثيولوجيا إلى الانثروبولوجيا، كما تظهر حين تعالج أهم قضيتين بالكلام القديم وهي مركزية الإنسان واستخلافه وتأليهه، وهذا يستدعي رؤية واضحة لتكوّن الإنسان البيولوجي والنفسي والاجتماعي وعلاقته بالدين والعقيدة إيمانا ودفاعا في البراهين والاستدلالات الجديدة للشبهات الجديدة، ويحثّ محمد أركون على استعمال وسائل التحليل الانثروبولوجي لدراسة الجماعات المختلفة والتي ترزح تحت حكم السّلطة السياسية والدّينية المبطنة بالايديولوجيا لتبرير أفعالها وسيطرتها المطلقة على الشعوب، فالانثروبولوجيا _حسب رأيه_ تقف ضد الايديولوجيا التي غلفت التاريخ لفترات زمنية متعاقبة.

ولكن يبقى أخطر ما يعتمده هؤلاء المفكرون في قراءتهم الجديدة –كما يرى النجار– معادلة النص والواقع بحيث تجعل ما يجري به الواقع من قيم ثقافية وحضارية وحقوقية هي الحكم الذي يحتكم إليه في تبين دلالة النص الديني وفي استبدال الأحكام المستفادة من النص بمقتضى تلك الأدلة بما يقتضيه الواقع الجاري بأوضاعه المتغيرة على الدوام، فلا يكون بحسب هذه القراءة للنص الديني مضمون موضوعي ثابت، وخطر المآل الذي تنتهي إليه القراءة الجديدة بهذا التأويل الواقعي،حين تصبح القيم والقوانين السائدة في هذا الواقع هي التي يؤول على أساسها النص القرآني، لتبقى مهمة النص الديني مقصورة على التوجيه الروحي دون محددات الأحكام[1].

وهذه القراءات الحداثية للنّص والفهوم الاجتهادية؛ قد أنتجت فهما نسبيا وإنسانيا شوّه العلاقة بين الله والإنسان وتشويش الرؤية التوحيدية الكونية الإسلامية بين الله والعالم والإنسان، ف "هذا النوع من الرؤية

[1] _ مرجع سابق، http://alrased.net/main/articles.aspx?selected_article_no=4848

والتحليل للآيات القرآنية يغلق الباب دون أي نوع من أنواع الاستشهاد والاستدلال بالآيات القرآنية في موضوع علمي أو معرفي ... مادامت عبارة عن كلام مضطرب وناشئ عن الحماسة المفرطة من شخص أسكرته أحداث البعثة والانبعاث، كما يرى محمد مجتهد شبستري من أن الأحكام والشرائع والعقائد ردود فعل انفعالية لعصر البعثة وجهت التعبد الجاهلي من الأوثان إلى الله، مع مسحة توحيدية من النبيّ دون أن تكون تشريعا من الله، وهكذا لن يعود "الكتاب" مصدرا صالحا كمرجعية في أي حقل من حقول المعارف الإسلامية، لا في بيان العقائد، ولا استنباط الأحكام[1]، ووجب البحث في تأثير ذلك على الأدلة القرآنية التي تشكّل اللّبنة والأساس في استصدار البراهين النّقلية بمضمونها العقلي والتجريبي والرّوحاني في التعريف والإثبات والدفاع عن العقيدة الإلهية المشرب، كما أنّها تشكّل الخطاب الكلامي المعاصر خصوصا أن الكلام القديم قد عانى من الجدل الجاف والتجريد المطلق فما بالك واليوم يجرد النصّ من قداسته وإلهيته ما ينذر بخطر على العقائد وتوظيفها جملة في قلبها إيديولوجيا أو تأويلا تفكيكيا اركيولوجيا يتنصّل من الإطار الزمكاني لنزول الوحي وملاباساته مع القطيعة الابستمولوجية عن التفسيرات الكلاسيكية المبطنة بايدولوجيا المذهب والسلطة بل جعلها خاضعة لحاجة الإنسان الاجتماعية الثورية والسياسية التحرريّة...

كما يجب الاعتراف في الأخير أنّ أزمة اليوم هي أزمة المنهج الّذي يعتبر السّمة الأساسية للعلم حيث وجدت هذه المناهج المعاصرة طريقها إلى الأرضية الإسلامية بسبب هذا العجز الواضح، إذ لا يمكننا الحديث عن علم قائم بذاته بدون منهج يفصح عنه ويجلي صورته، فالعلوم لا تحصّل مصداقيتها إلّا من عمق وتماسك مناهجها، ومن قدرتها على استخلاص المعارف وتقنين الأنساق المنتجة لها، بل يذهب البعض إلى أن العلم منهج قبل أن يكون موضوعا أو مجموعة من المعارف أو النظريات، كما يمثل الوسيلة الأولى التي بها يحقق المجتمع آماله وتطلعاته وأهدافه وبناء إدراك متين أقرب لليقينية والفهم السّليم لواجباته والتزامه الشرعي نحو الوحي وعلومه خاصة والعلم الإنساني عامة.

كما تفرض الموضوعية قبول هذه المناهج مبدئيّا تحت دثار النّقد والتقويم والغربلة، كما تعاملت الأمة الإسلامية والمعتزلة خصوصا مع الفلسفة اليونانية والمنطق الأرسطي في قبول الموافق ورفض المخالف، تبعا لضوابط موضوعية ومرجعية يضعها مختصون وربانيون، إذ قضت سنّة الله سبحانه وتعالى بمثاقفة الحضارات فيما بينها إذ يقول عزّ من قائل: **"وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا"**، وهذا التّلاقح من أبرز الظّواهر في المعرفة الإنسانية، وأنّ تعدّد الشّعوب وتنوّعها مدعاة للتّعارف والتواصل لا الصّراع والتناحر.

1_ أحمد الواعظي، نفس المرجع، ص 357.

وكغاية أسمى للملتقيات في إثارة نقاط مهمة وتوجيه اهتمام الباحثين نحوها إرتأيت أن أورد الإشكاليات في منتهى المقال علّها تجد الأذن الصاغية بعد محاولتي في تسليط ضوء على خطر هذه القراءة على الدين الإسلامي ومرجعيته، وتجديد الدّعوة إلى هرمنيوطيقية إسلامية عربية تخدم وتتحد في إنشاء تفسير جديد للقرآن لعصرنا لأنه واجب نحو الأجيال القادمة وتحقيق شهودنا الحضاري، ومهمّة عبادية في الاستخلاف.

_ هل يكمن أن تشكّل التأويلية خطرا على التأويل حال تطبيقها الشامل في علم الكلام الجديد؟

_ كيف يمكن الوصول إلى معنى النص القرآني بشكل موضوعي أقرب إلى اليقينية في مقابل النسبية العبثية اللامتناهية، و تحقيق الاختلاف المتجدد والبناء في اطار الوحدة المطلقية ؟

_ هل باستطاعة المؤول الوصول للمقصد الإلهي في القران وهو المفطور على النقصان؟

_ هل هذه القراءات ببطاناتها القبلية ستحتل مكان النص كما حدث مع الثورة على اللاهوت المسيحي؟

يقول عزّ وجل: "هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا تَأْوِيلَهُ يَوْمَ يَأْتِي تَأْوِيلُهُ يَقُولُ الَّذِينَ نَسُوهُ مِنْ قَبْلُ قَدْ جَاءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِالْحَقِّ فَهَلْ لَنَا مِنْ شُفَعَاءَ فَيَشْفَعُوا لَنَا أَوْ نُرَدُّ فَنَعْمَلَ غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ قَدْ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ"[1].

تم بحمد الله

[1]_ سورة الأعراف، 53